القرآن الكريم والوصايا العشر

سبستيان غينتر ■

لا مراء أن «الوصايا العشر» ـ كما وردت في التوراة العبرانية ـ تكتسي دلالة أساسية بالنسبة إلى جماعات ومجتمعات وثقافات التقليد اليهودي / المسيحي. وبالفعل ـ في اعتقاد العديد من اليهود والمسيحيين ـ تُعدُّ هذه اللائحة التوراتية من التعاليم الدينية والأخلاقية بمثابة «ميثاق» النظام الاجتماعي؛ إذ هي سجل مميّز من النواميس التي تشكل أنموذجاً توراتياً مصغراً من عهد الرب مع بني البشر.

وبطبيعة الحال، ينبلج السؤال عمَّا إذا كان القرآن يتضمن هو أيضاً أو يحيل إحالة صريحة إلى الوصايا العشر. وبتعبير آخر، هل يُحتملُ أن يتقاسم أتباع الديانات التوحيدية الثلاث مدونةَ مبادئ دينية وأخلاقية تُعدُّ ذات أهمية حيوية قصوى في أمر حياتهم ووجودهم، وذلك بالقدر نفسه وعلى الأهمية نفسها؟

1 ـ الوصايا في التوراة

ترد الوصايا في التوراة وفق صيغتين اثنتين: أولاهما وردت

■ رئيس قسم الدراسات الإسلامية في جامعة غوتنغن بألمانيا الاتحادية.

في السِـفْر الثاني من أسـفار التوراة المسـمى «سِـفْر الخروج»، الإصحاح 20: 1 - 17، وفي السِفْر الخامس المدعو «سِـفْر تثنية الاشتراع»، الإصحاح 5: 5 - 21. على أن ثمـة لائحة إضافية ثانية للوصايا العشـر ـ لربما تكون أقدم ولكنها أقل شهرة ـ وردت في سِفْر الخروج، الإصحاح 34: 14 - 28.

والحال أن التعبير التوراتي المسـتعمل للحديث عـن مضمون الوصايا العشـر في التوراة العبرانية هو التعبير العبري aseret ha-dvarim ـ «العشـر كلمات» ـ إلا أنه يطلق عليها أيضاً اسـم «الوصايا العشـر». والتعبير الذي اشتهرت به decalogue إنما اشـتقاقه عائد إلى التعبير اليوناني deka logoi، الذي يعني بدوره كذلك «عشـر كلمات» أو «عشـرة أقوال». وبحسب ما ورد في هـذه المقاطع من التوراة العبرانية، فإن هـذه الوصايا إنما أنزلها الله على موسى في طور سيناء، وقد رقّمت في لوحين من الصخر.

هذا ولقد جرى التعارف على تقسيم الوصايا التوراتية إلى مجموعتين، وكل مجموعة تضم خمس وصايا.

وهكذا تتضمّن المجموعة الأولى قواعد؛ مدارها على صلة البشر بالرب. وهي تحرم تحريماً قاطعاً:

1ـ الشرك بالرب.

2ـ كل ألوان عبادة الأصنام.

كما تنصّ هي على:

3ـ ألا يساء إلى اسم الرب.

4ـ أن يستريح الإنسان يوماً في كل سبعة أيام.

5ـ أن يكرم الإنسان أبويه.

وتنظم المجموعة الثانية تنظيماً مباشـراً صلات البشـر في ما بينهم، وتنصّ هذه القواعد ـ التي سـنّها الرب لبني إسرائيل ـ على أنه ليس ينبغي للمرء أن:

6ـ يقتل النفس البشرية؛

7 ـ وألا يزني؛

8 ـ وألا يسرق؛

9 ـ وألا يشهد بالزور؛

10 ـ وألا يشتهي الأشخاص أو الأشياء التي ليس من حقه أن يشتهيها.

2 ـ الألواح في القرآن: السورة 7 (الأعراف)، الآيات 142 ـ 146

إنَّ التعبير التوراتي المستعمل للحديث عن مضمون الوصايا العشر في التوراة العبرانية هو التعبير العبري القائل بالكلمات العشر

من المعلوم أن القرآن لا يتضمن مقطعاً يُعرف معرفة جلية باسم: «الوصايا العشر».

لكن السورة 7 (الأعراف)، الآيات 142 - 146، ذات صلة بالفترة من تاريخ الوحي التي تجلّى فيها الرب إلى موسى بطور سيناء، وكتب له (وأنا هنا أستشهد استشهاداً): «موعظةً وتفصيلاً من كل شيء» في الألواح. غير أن مضامين النص في الألواح تبقى مجملة غير مفصلة، وذلك سواء في هذا المقطع من القرآن أم في غيره من المواضع.

3 ـ المفسرون القدامى

يتطرق المفسرون القدامى ـ إلى حدٍ ما ـ إلى الألواح التي أنزلها الله على موسى، وهم يذكرون ـ مثلاً ـ المواد الثمينة التي صُنعت منها هذه الألواح، مشيرين إلى زمردة خضراء وياقوتة حمراء وزبرجد، وإلى خشب من شجرة بالجنّة، كما يقال: إن النقش الذي نُقشت به الألواح إنما كان من ذهب.

على أنه يمكننا أن نقول: إن الملاحظات حول هذه التفاصيل «التقنية» إنما كانت ترد على وجه شديد الإيجاز.

وهكذا، يروي لنا ابن كثير ـ وهو مفسر للقرآن عاش في القرن الرابع عشر الميلادي، لماذا كان الأمر على هذا النحو من الإيجاز (وأنا أنقل كلامه هنا):

لقد تقدّم أن فسّـر اللّه لنا (يعني المسـلمين) [عبر تنزيل القرآن] ما الذي ينبغي لنـا أن نعلمه من أمر ما تحتويه هـذه الألواح. ولهذا ليس من المهم... أن نعلم حجمها ولا تفاصيل أخرى عنها.

وفي ما يخصّ النصّ المتعلّـق بالألواح؛ فإن تفاسـير الطبري والرازي والقرطبي وابن كثير ـ فضلاً عن تفسير الجلالين ـ كلها لا تورد إلا عبارات شديدة الإيجاز.

في القرن العاشـر الميلادي يذهب الطبري مثلاً إلـى أن هذه الألواح تحدد الأشياء التي أباحها بنو إسرائيل وتلك التي حرموها.

وفـي القرن الثاني عشـر الميلادي قـال الـرازي: إن نصوص هذه الألواح متعلّقة بالأحكام.

وفي القرن 14م ذهب ابن كثير إلى أن:

أ ـ الألواح أُنزلت على موسى قبل أن يتلقى التوراة.

ب ـ وأن الألواح تمثل أُم الكتاب.

وفي تفسير الجلالين ـ وهو تفسير يعود إلى القرن 15 الميلادي ـ يقرأ المرء: «الألواح؛ أي ألواح التوراة».

يبدو بحسب ما يستشف من هذه الأقوال ـ فضلاً عن غيرها من الأقوال الشبيهة التي تعود إل تفاسير العصر الوسيط ـ أن المفسرين المسلمين في العصر الوسـيط لم يحاولوا ـ على وجه العمـوم ـ أن يتعرفوا على الوصايا العشـر «التوراتية» في القرآن؛ إذ بالنسـبة إلى العديد منهـم، ما الألواح المنزلة على موسى إلا شيء يمثل نصّ التوراة.

4 ـ المفسرون المبكرون وقصص الأنبياء

ثمة صورة مباينة لما رأينا ترتسم في التفسير المبكر للقرآن الذي قام به مقاتل بن سليمان وفي أدبيات قصص الأنبياء.

مقاتل بن سليمان (توفي عام 150هـ/767م):

عُرف مقاتل بن سليمان ـ الذي عاش في القرن الثامن الميلادي، وكان دوماً محط نقد من لدن متأخري علماء الإسلام في العصر الوسيط ـ بإدماجه المرويات الإسرائيلية (الإسرائيليات) في القرآن، وبعودته الدائمة إلى الاستشهاد بـ«أهل الكتاب». فمثلاً، لا يشير الطبري أبداً إلى مقاتل.

والحال أن مقاتلاً هذا يبدو أنه تفرد بأمر دون المفسرين الآخرين، عندما تحدث عن الألواح المنزلة على موسى. وأنا أنقل كلامه ها هنا:

«فكَتَب فيها: إنِّي أنا اللّٰه الذي لَا إلهَ إلَّا أنا الرحمن الرحيم،
لا تُشْرِكوا بِي شَيْئاً،
ولا تَقْتُلوا النفْس،
ولا تَزْنُوا،
ولا تَقْطَعُوا السَبِيلَ،
ولا تَسُبُّوا الوالِدَيْن.
(تفسير مقاتل، 62 - 63).

ثمة أيضاً لفتة أخرى دقيقة يوفرها لنا العلّامة صاحب كتاب (الفهرست) ذائع الصيت ابن النديم (385هـ/995م)، وهو المؤلف الضخم الذي أفرده لجرد أسماء الكتب العربية التي كانت متوفرة في عصره. فقد ذكر الرجل أن أحد اللوحين اللذين أنزلهما اللّٰه على موسى يتضمن «الميثاق» مع اللّٰه، والآخر يشتمل على «الشهادة» بأن لا إله إلا اللّٰه.

أبو الحسن الكسائي (القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي)

يورد أبو الحسن الكسائي ـ في كتابه «قصص الأنبياء» ـ تفاصيل أوفى؛ ذلك أن الكسائي ـ وهو عالم لغة ونحو وعارف بعلم القراءات عاش في القرن الثامن الميلادي ـ يروي ـ مثلاً ـ كيف أن الملك جبريل هبط إلى موسى وقال له: «قم واركب جناحي المرصّع باللؤلؤ والمرجان الذي لم يركبه أحد من قبلك». كما روى لنا أيضاً أن جبريل احتمل موسى إلى

المكان الــذي كلمه فيه ربه، وأنه ما أن بلغ طور ســيناء حتى ســمع صرير القلم كيف يجري في الألواح، وذلك لما أوحى الله إلى القلم أن «اكتب»!

ثم ما لبث أن أورد الكسائي لائحة الوصايا التي أملاها الرب.

كما أنه استشــهد بابن عباس ـ وهو صحابي معروف، وأحد أهم مفسّري القرآن المبكرين ـ الذي حدّد نظيراً لكل وصية مــن الوصايا التوراتية في القرآن.

«يا موسى إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني ولا تشرك بي شيئاً».

قال ابن عباس: «ونظيرها في القرآن» هو: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [لقمان: 14].

«يا موسى لا تقتل النفس التي حرمت إلا بالحق...».

قال ابن عبــاس: «ونظيرها فــي القرآن» هــو: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: 93].

«يا موسى لا تسرق مال غيرك...»

قال ابن عباس: «ونظيرها في القرآن»: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ (المائدة:38). وهكذا دواليك...

وعند الكسائي، ما من ســبيل إلى الشــك في أن الوصايا التي أُنزلت على موسى إنما وردت متضمنةً في القرآن، وأنه يلزم المسلمين العمل بها.

لا حاجــة بنا ـ في اللحظــة التي نحــن فيها الآن ـ إلــى مواصلة طرح مسائل أخرى متعلّقة بما إذا كانت الوصايا التي أوردها الكسائي تتماشى مع الوصايا المذكورة في التوراة، وما إذا كانت النظائر التي ذكرها ابن عباس لهذه الوصايا تسوغ أم لا.

أبو إسحاق الثعلبي (توفي عام 427هـ/1035م)

مثالنا الثالث هو أبو إسحاق الثعلبي، وهو دارس قرآن وحامل قلم عاش في القرن الحادي عشر الميلادي. وقد أفرد ـ في كتابه «قصص الأنبياء» ـ عدة صفحات للألواح التي تنزلت على موسى. ووصف كيف أن الله أرسل جبريل إلى جنة عدن فقطع منها شجرة فاتخذ منها تسعة ألواح طول كل لوح منها عشر أذرع بذراع موسى.

يقال أيضاً: إنّ الله صيَّر من تسعة أغصانٍ من سدرة المنتهى نوراً وصار النور قلماً أطول مما بين السماء والأرض وكتب التوراة لموسى بيده، كتب له في الألواح من كل شيء موعظةً وتفصيلاً، وذلك يوم الجمعة.

قام مفسِّر القرآن المبكّر عبد الله بن عباس بالمطابقة بين ما ورد في القرآن عن دعوة موسى، وما ورد في الوصايا العشر بحسب نصّ التوراة

[تنبغي الإشارة هنا إلى أن طلبتي سرعان ما شاقهم هذا الأمر لما كنا في طور قراءة هذا الوصف الحي أثناء الفصل، وذلك حتى إن بعض طلبة العلوم علّق بالقول: «يبدو أن شعاع النور هذا كان أول أشعة ليزر كتب لها أن تكون»].

بعد ذلك أورد الثعلبي فصلاً كان عنوانه ـ وأنا أستشهد بكلامه هنا ـ «فصل في نسخة العشر الكلمات التي كتبها الله تعالى لموسى نبيه وصفيه في الألواح وهي معظم التوراة وعليها مدار كل شريعة».

نلاحظ ها هنا إيراد التعبير «العشر كلمات» ـ وهو التعبير الذي يقابل التعبير التوراتي aseret ha-dvarim (من الناحية اللغوية، الأصح في العربية القول «الكلمات العشر»).

وفيما أعقب، أورد الثعلبي الوصايا العشر. وقد ختم المقطع بالقول (وأنا أنقل كلامه هنا):

«فهذه نسخة العشر الكلمات وقد أعطاها الله جميعاً لمحمد ﷺ في ثماني عشرة آية. وهي قوله تعالى في سورة بني إسرائيل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا

تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾، إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ﴾ [الإسراء: 23 - 38]. ثم جمعها في ثلاث آيات من سورة الأنعام. وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام: 151 - 153]»).

يطرح هذا التفسير أمرين:

1 ـ في اعتقاد الثعلبي، أن القرآن لا ينقل وصايا التوراة بتعابير مجملة؛ وإنما يتضمّنها بتفاصيلها.

2 ـ أن الوصايا المنزلة على موسى أوحيت إلى محمد ﷺ بتفانينها، وذلك في 10 آيات من السورة 17 ـ سورة الإسراء (بني إسرائيل) ـ وبإيجاز في السورة 6، سورة الأنعام.

4 ـ 1 سورة الإسراء (سورة بني إسرائيل) 17: 22 ـ 39.

ترد الوصايا في السورة 17، الآيات 22 - 39، في شكلها الموجز، على النحو التالي:

[1] ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾

[2] ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾

[3] ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾

[4] ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾

[5] ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ... ﴾

[6] ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ...﴾

[7] ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ...﴾

[8] ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ...﴾

[9] ﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ...﴾

[10] ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ...﴾ ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ... ﴾

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**» قالوا: يا رسول الله وما هنّ؟ قال:

1 ـ «**الشرك بالله،**

2 ـ **والسحر،**

3 ـ **وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق،**

4 ـ **وأكل الربا،**

5 ـ **وأكل مال اليتيم،**

6 ـ **والتولي يوم الزحف،**

7 ـ **وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**».

(رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي)

إنّ هذه اللوائح من المنهيات الواردة في الأحاديث الصحيحة كانت معروفةً جداً ومتداولة بين المؤمنين منذ أن ظهر الإسلام

وجب التنبيه ها هنا على أن هذه اللوائح من الأقوال النبوية المتميّزة إنما كانت معروفة جداً متداولة بين المؤمنين منذ أن ظهر الإسلام، وقد ازدهرت هذه الأفكار في الثقافة الشفوية المتعلّقة بعملية رواية الأحاديث المبكرة (على نحو ما يشهد على ذلك مدى انتشارها الواسع في الأدبيات الدينية خلال حقبة العصر الوسيط)، وذلك إلى حد أنها صارت جزءًا لا يتجزأ من آداب السلوك الأخلاقي في الحضارة الإسلامية.

لكن، دعنا نعود مرة أخرى إلى الأدبيات القديمة المتعلّقة بتفسير القرآن.

علينا أن نتذكّر ـ ضمن ما تمَّ الاستدلال عليه أعلاه ـ بأنه كانت لمفسري القرآن المسلمين في العصر الوسيط دراية ـ إلى حد ما ـ بالمظهر الفيزيائي (المادي) للألواح وللظروف المحيطة بتنزيلها على موسى.

لكن ـ وكما رأينا ذلك ـ ما كان أغلب المفسرين يحيلون إحالة مباشرة على الوصايا العشر أو «العشر كلمات» المنزلة على موسى، وما فعلوا ذلك لا في تحشياتهم على السورة 6، الآيات 151 - 153 والسورة 17: 22 - 34،

لا ولا في شروحاتهم على السورة 2: 83 - 84، وذلك على الرغم من واقع أن بعضهم ـ وليكن الطبري وابن كثير مثلاً ـ أشار بعموم اللفظ إلى أن هذه المقاطع القرآنية تتضمّن إشارات يعتقد بأنها توجد في التوراة.

4 ـ 2 القرآن (الأنعام): 151 ـ 153

من بين العديد من المفسرين ومن المصادر التاريخية في العصر الوسيط، التي تحققت منها، لا توجد إلا نسبة قليلة من الفقهاء أحالت على «الوصايا العشر»،

وأشدّهم دلالة على الشأن:

1 ـ في القرن 13م. الفقيه المالكي القرطبي وكتابه «الجامع لأحكام القرآن».

2 ـ في القرن 13م. المؤرخ ابن كثير في تاريخه الكبير «البداية والنهاية».

3 ـ في القرن 15م. عالم الكلام المالكي المنحدر من شمال إفريقيا عبد الرحمن الثعالبي في كتابه «تفسير القرآن».

4 ـ وأخيراً في القرن 17 العالم العثماني حاجي خليفة في كتابه «كشف الظنون».

وقد أحال القرطبي ـ في تفسيره للسورة السادسة ـ إلى كعب الأحبار؛ وهو رجل يهودي أسلم ونقل التراث اليهودي الشعبي والمروي من العلماء، وذلك في قوله: «هذه الآية مفتتح التوراة».

ثم استشهد بعد ذلك بابن عباس (وأنا أنقل هنا قوله):

«هذه الآيات المحكمات... أجمعت عليها شرائع الخلق... وقد قيل: إنها العشر كلمات المنزلة على موسى» (انظر القرطبي: تفسير سورة الأنعام. الآية 151).

وقد ختم القرطبي بالقول: هذه الآية أَمْرٌ من الله تعالى لنبيه عليه السلام [موسى] بأن يدعو جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرّم الله.

تعكس وجهات النظر هذه ـ لا مرية في ذلك ـ المعتقد الإسلامي الشهير الذي بحسبه يعتبر القرآن تتميماً بالفعل وختماً واستيفاءً لما أوحى به الله من وحي إلى أنبيائه.

ومع ذلك، فإن العديد من المفسرين القدامى كانوا يركزون ـ بالأَولى ـ على الصلاحية الكونية لهذه الجملة من القيم الدينية / الأخلاقية المنزلة في السورتين السادسة والسابعة عشرة، وذلك أكثر مما ركزوا هم على الإحالات الممكنة إلى الوصايا العشر.

والحال أن شروح القرن 12م، ممثلة في الرازي (ت ـ 1210)، تبقى ذات أهمية خاصة بالنسبة إلى ما نحن بشأنه:

إذ يميّز الرازي بين التعاليم المتضمنة في السورة السادسة، الآيات 151 - 153، و«الكتاب» الذي أنزله الله على موسى (المشار إليه في الآية اللاحقة، 154).

يعزز الرازي فكرة القيمة الكونية لوصايا القرآن عندما يعلّق على الآيات الواردة في سورة الإسراء، حيث يقول: إن القواعد المذكورة في السورة مشتركةٌ بين كل الأديان

وهو يقول: إن هذه التعاليم القرآنية أبدية، ويرى أنها تعود إلى الزمن الأول الذي متع الله فيه البشر بحقوقهم، وألزمهم بمسؤولياتهم.

والذي عند الرازي أن التعاليم التي يوفّرها القرآن إنما هي موجهة إلى كل البشر، مشتركة بينهم، وهي تبقى صالحة وصحيحة إلى يوم الدين، وأن التوراة ـ كما قال ـ نزلت على موسى في زمن متأخر عن الزمن الذي تمثّله هذه التعاليم.

ويعزز الرازي فكرة القيمة الكونية لوصايا القرآن عندما يعلّق على السورة 17: الإسراء، وهنا يقول: إن القواعد المنزلة ها هنا مشتركة بين كل الأديان.

5 ـ المفسرون المحدثون

أعطيت الأولوية لفكرة القيمة الكونية لوصايا القرآن أيضاً من لدن المفسرين المحدثين ونقلة القرآن إلى الألسن الأخرى. وهم يشددون، بالإحالة إلى السورة 17، على نقطتين:

أولاً: إن واقعة أن الوصايا العشـر إنما نزلت هي ـ أول ما نزلت ـ على إبراهيم، ثم إثره على موسى؛ لمن شأنها أن تظهر أن كل الأديان التي كُلّف الرسل بتبليغها إلى البشر إنما تقوم على المبادئ الأساسية عينها، وهذا ما لاحظه مترجم القرآن عبد الحميد صديقي تعليقاً على السورة 6.

ثانياً: إن لائحة الوصايا في هاتين السـورتين إنما تعبّر عن: «التعاليم الأساسية التي يشيد على أساسها الإسلام بنية الحياة البشرية برمتها، وهي تعاليم تتعلّق بكل مجالات الدولة والمجتمع وشـؤون الأمة. وهي «بيان» نزل على النبي محمد ﷺ بمكة قُبيل الهجرة؛ ومن ثمة دشن عهداً جديداً... لكي يجعل كل إنسـان يعلـم أن المجتمع الجديـد، وأن الدولـة الجديدة، إنما يقومان على هذه المبـادئ الإيديولوجية والأخلاقيـة والثقافية والاقتصادية والشرعية».

وهذا ما لاحظه أبو الأعلى المودودي (1903 - 1979م) ـ وهو داعية إسلامي معروف في القرن العشرين.

وكذلك يؤدي مفهوم القيمة الكونيـة للوصايا في القرآن دوراً كبيراً في شرح سيد قطب للسورة 6، الآيات 151 - 153، فهو يقول:

«وننظـر في هذه الوصايا، فـإذا هي قوام هذا الدين كلـه ؛ إنها قوام حياة الضمير بالتوحيد، وقوام حياة الأسـرة بأجيالها المتتابعة، وقوام حياة المجتمع بالتكافـل والطهارة في ما يجـري فيه من معامـلات، وقوام حياة الإنسانية وما يحوط الحقوق فيها من ضمانات».

ويختم سـيد قطب بالقول: «هذه القواعد الأساسية الواضحة التي تكاد تلخص العقيدة الإسلامية وشريعتها الاجتماعية».

استنتاجات

ما كانـت البغية من هذه الورقة تحديد العبـارات الواضحة في القرآن وفحصها؛ عنيت تلك التي تحيل مباشـرة ـ بالأكثر أو بالأقل ـ إلى المسائل المثارة في الوصايا العشـر الواردة في التوراة. فلئن نحن افترضنا أن هذه

كانت هي الحالة، لكان علينا آنها أن نناقش العديد من القواعد الواردة في القرآن بشأن:

أ ـ صلات بني البشر بالرب وبعضهم ببعض.

ب ـ البر بالوالدين، واحترام الحياة، والأُسرة والجنس.

ج ـ العناية بالحقيقة والعدالة وحماية الملكية ... إلخ. ولكان علينا ـ بالخصوص ـ أن ندرس كل تلك المقاطع القرآنية الأخرى التي ـ شأنها شأن الوصايا العشر ـ تستعمل «لائحة» تحمل وتنقل القواعد والتعاليم الأخرى ذات الدلالة الدينية والأخلاقية.

وإنما بدل هذا، سعت هذه الورقة إلى التنقيب عمّا يقوله القرآن وعلماء الإسلام في أمر «الوصايا العشر»، وعرض ذلك كله، وبيان مدى أهميته عند المسلمين. والحق أن هذه المقاربة سمحت بإماطة اللثام عن نقاط مفتاحية ثلاث:

أولاً: منذ بدء أمر الإسلام، شكّل النظر في مقطعين من مقاطع القرآن ـ السورة 6، الآيات 151 - 153 والسورة 17، الآيات 22 - 39 ـ جزءًا لا يتجزأ من خطاب علماء الإسلام، وذلك بما أن هذه المقاطع تعرض جملة من الوصايا تعكس أو تتوازى ـ إلى حدٍ ما ـ مع وصايا التوراة العشر.

(وقد اعتبرت وجهة النظر هذه كذلك من لدن العديد من الباحثين الغربيين في القرن التاسع عشر الميلادي)

وعلى الرغم من ذلك، فإنه في الوقت الذي كانت فيه الصلة الوثيقة بين هذه الآيات القرآنية المخصوصة وبين التوراة بادية للعيان، وتمَّ التنصيص عليها من لدن المفسر المبكر مقاتل بن سليمان، كما نصَّ عليها أيضاً بعض حملة القلم والمؤرخين المسلمين في حقبة العصر الوسيط؛ فإنها ما كانت على الحال نفسه عند مفسري القرآن القدامى الذين شدّدوا ـ بالبدل من ذلك ـ على الطابع الإسلامي والكوني الأبدي لهذه الجملة من التعاليم القرآنية الدينية والأخلاقية.

والحال أن هذا التغير الدقيق في نبرة التشـديد هذه لربما يعكس ـ أو لربما كان رد فعل ـ تطور مجتمع إسلامي ودولة كانت زمن العصر الوسيط قائمة بقوة وذات دعامة أكيدة، غير أنها كانت في الوقت ذاته في حاجة إلى قواعد إلهية اجتماعية منظمة وإلى هوية.

ومع ذلك، يمكـن أن يكون هذا التغيـر ثمرة لتنامي وعي المفسـرين وحساسـيتهم بمسـائل شـأن أصالة النص ورسـالية القرآن، وصلة القرآن بالتوراة، ومنزلة الإسـلام بالقياس إلى اليهودية والمسيحية... وهي مسائل صـارت ـ بطبيعة الحـال ـ الموضوع الذي طغـى على الجـدالات الكلامية والمساجلات الفكرية بين المسلمين والمسيحيين واليهود في ذلك الزمان.

ثانياً: لئن نحن عمدنا إلـى المقارنة بين لائحة الوصايـا الواردة في التوراة وتلك الواردة في القرآن؛ لألفينا أنه من المثير حقاً أن الوحيين معاً يوليان أشد العناية إلى وجود إله واحد حق ـ هو الإله الوحيد لهذا الكون، وهو الحاكم الوحيد الذي لا حاكم سواه.

والحال أنه سـواء نظرنا في التوراة أم اعتبرنا القرآن، فإن الوصية الأولى الحقيقية هي تلـك التي تتطلب من أولئك الذين يؤمنون بالله أن يغـذوا إيمانهم وأن يصونـوه، وأن يرفضـوا كل ما من شـأنه أن يكون معارضاً له.

وفضلاً عن هـذا، فإن الأوامر الشـرعية ـ والأخلاقية التـي هي مفتاح الحياة البشـرية والوجود ـ إنما تم التعبير عنها فـي الوحيين معاً على نحو متشابه من حيث الوضوح والقوة.

ثالثاً: على الرغم من التماثلات، فإن ثمة تباينات بين لائحتي التعاليم الدينية الأخلاقية الواردة في كل من التوراة والقرآن.

والحال أن هـذه التباينات إنما مردها إلى درجة التشـديد والتنصيص على بعـض الوصايا. أكثر مـن هذا، ثمـة وصايا أخرى فـي لوائح القرآن للوصايا غائبـة بالتمام والكمال مـن لوائح التوراة؛ وذلـك مثلما أن بعض الوصايا التوراتية غير منصوص عليها في القرآن.

من جهة أولى ثمة ـ مثلاً ـ الوصية:

اذكر يوم السبت لتقدسه. ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك. وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك.

فإنها غير واردة ضمن جملة وصايا القرآن.

ومن جهة ثانية، على خلاف نظيراتها في التوراة، تشدد اللوائح القرآنية للوصايا، على وجه الخصوص، على قيم إنسانية شأن:

- ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ... ﴾.
- ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ... ﴾.
- ﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ... ﴾.
- ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ... ﴾.

إنّ المقارنة بين لائحة الوصايا الواردة في التوراة وتلك الواردة في القرآن؛ توضح أنه من المثير حقاً أن الوحيين معاً يوليان أشد العناية إلى وجود إله واحد حق ـ هو الإله الوحيد لهذا الكون

والحال أنه في زمن نزول القرآن، كانت التوجهات الأخلاقية من مثل هذا القبيل، ذات دلالة خاصة في المجتمع العربي (البدوي).

وباعتبار الأهمية الدائمة لهذه المبادئ مع ذلك، فإنه ليس من الأمر المفاجئ للمرء حقاً أن يتم التشديد عليها من لدن العلماء المسلمين في العصر الوسيط، وبالخصوص في الفترة الحديثة لدى أولئك الذين استشهدنا بهم في ورقتنا هذه.

والحق أن من شأن هذه الكشوفات أن تجعل من المستحيل الحديث عن مدونة واحدة مشتركة ـ وملزمة أيضاً ـ بين الأديان التوحيدية الثلاثة.

وعلى الرغم من ذلك، وكما سبق أن برهنا على هذا الأمر، فإن أغلب الأفكار الحاسمة المطروحة للنظر هنا إنما هي متقاسمة متشاطرة بين التوراة والقرآن. وهي تحظى ـ على وجه الخصوص ـ بتقدير عال من لدن كل أتباع الديانات التوحيدية الثلاث.

يمكننا أن نختم باقتباس من رسالة يعتقد بأن النبي محمد ﷺ كان قد بعث بها إلى إمبراطور البيزنطيين هرقل (حكم ما بين 610 و641 ميلادية). وفيها خاطب نبي الإسلام الحاكم النصراني عن طريق الاستشهاد بالآية:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

وبالنسبة إلى أولئك الذين لهم ألفة بالقرآن وأنسة، فإن استشهاد محمد المقتبس من السورة 3 يثير في أذهانهم نص وميثاق هذه السورة.

إنما هذه السورة فصل من القرآن هو بحسب محمد عبد الحليم ـ مترجم معاني القرآن ومدير المعهد الإسلامي بجامعة لندن ـ وكما أشار إلى ذلك: «يوثق لبداية التوتر الذي نشب بين المسلمين وبعض اليهود والنصارى» زمن نزول الوحي القرآني. لكن ـ وهذا هو الأهم ـ يختم بالتشديد على وحدة الإيمان والسلوك بين المسلمين وأهل الكتاب.

أكثر من هذا، تدعو هذه الإحالة بالفعل إلى تذكر بعض المقاطع القرآنية الأخرى التي تبدأ بالتوجيه التالي:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [البقرة: 83]؛ ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [الإنعام: 151]؛ ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ... وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 22 - 23].

وكما رأينا، فإن هذه المقاطع القرآنية تحظى بالخصوص بتقدير خاص من لدن علماء الإسلام القدامى والمحدثين على حد السواء.

ها هنا تنقدح ثلاث نقاط أساسية:

1 ـ أن الإعلان الصريح والقطعي على أن الله واحد ـ وهو مذهب مركزي بالنسبة إلى التوراة وإلى القرآن معاً ـ هو ما تحمله هذه المقاطع الثلاثة وتنقله.

2 ـ تصوغ هذه المقاطع الوجيزة والبدية «المبادئ الأساسية والمطلقة للإيمان الإلهي»، وهي مبادئ تبقى ذات قوة دائمة عبر التاريخ البشري.

3ـ تحيل هذه المقاطع إحالة خاصة إلى ميثاق الله الشرفي مع بني البشر وإلى تنزيل الوصايا العشر بطور سيناء.

وإن الدعوة النبوية إلى الجنوح إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، وإلى البحث عن أساس مشترك بين المسلمين والمسيحيين واليهود، لتصير بهذا الشأن ذات بعد دلالي جديد.

ومع الأخذ في الاعتبار عالمنا الذي يشهد على التعدد أكثر فأكثر، فإن المرء قد يتساءل عمّا إذا لم تكن هذه الرسالة النبوية تشجيعاً قوياً لنا على الاعتراف والاستفادة من الإمكانات الضخمة المتضمنة في المبادئ والقيم التي تتقاسمها الحضارات والثقافات والجماعات الإيمانية.

والحق أن من شأن مثل هذا المنظور أن يساعد بالفعل على إنعاش حوار صريح وبنّاء بين مختلف الجماعات وضروب الإيمان؛ وذلك في الوقت نفسه الذي يمكنه أن يعمل فيه على تقوية فكرة أن احترام الاختلافات وتقدير التنوع الثقافي والتعدد ما كانت هي قطعاً من أسباب الفرقة والشقاق؛ وإنما هي على الضد من ذلك منابع القوة ومصادر التقدم.